مجموعة أمهات المؤمنين

بإشراف محمد أحمد برانق
كبير مفتشي التربية الدينية
بوزارة التربية والتعليم (سابقا)

(١٤)

أم حبيبة

الطبعة التاسعة

دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر : دار المعارف ١١١٩ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع.

١

فِي ذاتِ يَوْمٍ دُقَّ بابُ أُمِّ حَبِيبَةَ فِي مَهْجَرِهَا بِالْحَبَشَةِ، فَقامَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ إلى الْبَابِ تَفْتَحُهُ لِتَنْظُرَ مَنِ الطَّارِقُ، فَإِذا بِالطَّارِقِ جَارِيَةٌ مِنْ جَوَارِي نَجَاشِيِّ الْحَبَشَةِ تُدْعَى «أَبْرَهَةَ» تَقُولُ لَها:

إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكِ: إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ كَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُزَوِّجَكِ مِنْهُ، فَوَكِّلِي مَنْ يُزَوِّجُكِ!

وَبُغِتَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بِهَذَا الْخَبَرِ، واسْتَوْلَتْ عَلَيْها الدَّهْشَةُ، وتَمَلَّكَها الْعَجَبُ..!

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ يُرْسِلُ إِلى نَجَاشِيِّ الْحَبَشَةِ لِيُزَوِّجَهُ مِنها..!! وطَافَ بِبالِ أُمِّ حَبِيبَةَ ذِكْرَى لِرُؤْيا رَأَتْها فِي الْمَنَامِ مُنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ.. فَقَدْ رَأَتْ فِي الْمَنامِ هَاتِفاً يَهْتِفُ بِها:

يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ...!

ورُوِّعَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ وَقْتَئِذٍ، واسْتَبْعَدَتْ أَنْ يَكُونَ

مَا رَأَتْهُ فِي الْمَنَامِ سَوْفَ يَكُونُ لَهُ ظِلٌّ مِنَ الْحَقِيقَةِ . .

وَلَكِنْ . . هَا هِيَ تَسْمَعُ مِنْ « أَبْرَهَةَ » جَارِيَةِ نَجَاشِيِّ الْحَبَشَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ قَدْ أَرْسَلَ إِلَى النَّجَاشِي لِيَخْطُبَهَا عَلَيْهِ ، وَأَنَّ النَّجَاشِي يَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تُوَكِّلَ عَنْهَا مَنْ يُزَوِّجُهَا ، لِتَصِيرَ زَوْجَةً لِرَسُولِ اللهِ ، وَتُصْبِحَ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ . . !

يَا لَنِعْمَةِ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ . . . ! وَيَا لَكَرَمِ رَسُولِهِ الَّذِي سَوْفَ يُكْرِمُهَا بِهِ !

وَإِذْ تَيَقَّنَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ مِنَ الْخَبَرِ ، وَإِذْ وَثِقَتْ بِصِحَّةِ مَا تَحْمِلُهُ إِلَيْهَا « أَبْرَهَةُ » مِنْ نَبَأٍ سَارٍّ سَعِيدٍ — قَالَتْ فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً تَرُدُّ لِأَبْرَهَةَ عَلَى النَّجَاشِي :

بَشَّرَهُ اللهُ بِالْخَيْرِ .

ثُمَّ خَلَعَتْ مِنْ يَدَيْهَا سِوَارَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ أَعْطَتْهُمَا لِأَبْرَهَةَ بِشَارَةً لَهَا عَلَى مَا حَمَلَتْ إِلَيْهَا مِنْ بُشْرَى سَارَّةٍ مُفْرِحَةٍ .

وَأَرْسَلَتْ إِلَى كَبِيرِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ قَوْمِهَا خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ تُوَكِّلُهُ عَنْهَا فِي زَوَاجِهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ الَّذِي

سَيَتَوَلَّاهُ النَّجَاشِي نِيابَةً عَنِ النَّبِيِّ .

وَانْصَرَفَتْ أَبْرَهَةُ فَرِحَةً مَسْرُورَةً بِما حَمَلَتْ إِلى أُمِّ حَبِيبَةَ مِنْ نَبَأٍ أَفْرَحَها وأَسْعَدَها ، وَتَلَقَّى خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ تَوْكِيلَ أُمِّ حَبِيبَةَ لَهُ فِي زَواجِها مِنْ رَسُولِ اللهِ مُغْتَبِطاً بِما سَتَنالُهُ هَذِهِ الْمُسْلِمَةُ الْمُؤْمِنَةُ مِنْ خَيْرٍ وبَرَكَةٍ جَزاءً لَها بِما صَبَرَتْ فِي سَبِيلِ دِينِ اللهِ .

وجَلَسَتْ أُمُّ حَبِيبَة فِي بَيْتِها الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ وَحِيدَةً إِلَى جَانِبِ ابْنَتِها الطِّفْلَةِ حَبِيبَةَ تُسَبِّحُ لِلهِ حَمْدًا ، وَتَسْجُدُ لَهُ شُكْرًا ، وتَسْتَعْرِضُ فِي خَيالِها بَعْضَ مَا مَرَّ بِحَياتِها مِنْ أَحْداثٍ ، ومَا جَازَ بِها مِنْ حَوادِث .

٢

وَانْتَقَلَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بِخَيالِها الْماضِي الْبَعِيدِ .

فَرَأَتْ نَفْسَها بِمَكَّةَ فِي بَيْتِ أَبِيها أَبِي سُفْيانَ بْنِ حَرْبٍ سَيِّدِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَكَبِيرِ آلِ عَبْدِ شَمْسٍ . وهِيَ بَعْدُ فَتاةٌ شابَّةٌ فِي نَحْوِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها ، وَطافَ بِذِهْنِها مَا كانَ يَدُورُ وَقْتَئِذٍ بِمُجْتَمَعاتِ مَكَّةَ ، وبِدارِ نَدْوَتِها مِنْ أَحادِيثَ حَوْلَ السَّيْلِ الْجارِفِ الَّذِي انْحَدَرَ إِلَى مَكَّةَ مِنْ أَعالِي الْجِبالِ الْمُحِيطَةِ بِها ، فَهَدَمَ كَثِيرًا مِنْ مَنازِلِها ، وصَدَّعَ جُدْرانَ الْكَعْبَةِ ، بَيْتِ اللهِ الْحَرامِ ، وَبَيْتِ عِبادَةِ أَهْلِ مَكَّةَ ، ومَوْئِلِ أَصْنامِهِمْ ، والَّتِي يَأْتِي النَّاسُ إِلَيْها مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ لِيَطُوفُوا بِها ، ثُمَّ كَيْفَ فَكَّرَ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ فِي هَدْمِ الْكَعْبَةِ وَإِعادَةِ بِنائِها مِنْ جَدِيدٍ ! وَكَيْفَ كانُوا يَخْشَوْنَ الْإِقْدامَ عَلَى هَدْمِها ، وَيَخافُونَ غَضَبَ رَبِّها عَلَيْهِمْ !

ثُمَّ كَيْفَ ظَلَّتْ قَبائِلُ قُرَيْشٍ فِي مُجادَلاتٍ وَمُشاوَراتٍ حَتَّى

اسْتَقَرَّ رَأْيُ أَبْنائِها عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ ، فَهَدَمُوها بَعْدَ خَشْيَةٍ وتَرَدُّدٍ .

واقْتَسَمَتْ قُرَيْشٌ هَدْمَ أَرْكانِ الْكَعْبَةِ ، وَبِناءَها ، حَتى إِذَا مَا آنَ أَوَانُ وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِى مَكانِهِ مِنْ جانِبِها الشَّرْقِيِّ اخْتَلَفَ الْقَوْمُ فِيمَنْ يَكُونُ لَهُ شَرَفُ وَضْعِهِ .

وَمَرَّتْ خَمْسُ لَيالٍ وَقُرَيْشٌ فِى خِلافِها وَجِدالِها هَذَا لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى رَأْيٍ ، حَتى اتَّسَعَتْ هُوَّةُ الخِلافِ بَيْنَ قَبائِلِها ، وَحَتى تَحالَفَ بَعْضُ هَذِهِ الْقَبائِلِ ، وَأَقْسَمَ عَلَى الْفَصْلِ فِى ذَلِكَ الْأَمْرِ بِحَدِّ السَّيْفِ .

وَوَسَطَ هَذَا التَّنابُذِ وَالتَّناحُرِ ، وَقَفَ أَسَنُّ شَيْخٍ فِى قُرَيْشٍ يُشِيرُ عَلَى أَبْنائِهَا الْمُجْتَمِعِينَ مِنْ حَوْلِ الْكَعْبَةِ بِتَحْكِيمِ أَوَّلِ قُرَشِيٍّ يَدْخُلُ عَلَيهِمْ مِنْ بَابِ الصَّفا فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ .

وَقَبِلَ الْمُتَشاحِنُونَ هَذَا الرَّأْيَ ، وَكانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ مِنْ بابِ الصَّفا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، الشَّابُّ الْوَسِيمُ الْأَمِينُ الَّذِى أَحَبَّتْهُ قُرَيْشٌ لِشَرَفِهِ وَنُبْلِهِ وَعِفَّتِهِ وَأَمانَتِهِ ، وَلَمْ

تَكَدْ تَقَعُ عَلَيْهِ نَظَرُ الْمُجْتَمِعِينَ وَهُوَ مُقْبِلٌ ، حَتى صَاحُوا جَمِيعاً ، وَقَدْ عَلَا الْبِشْرُ وُجُوهَهُمْ ، وَجَرَتْ الابْتِسَامَاتُ فِى شِفَاهِهِمْ : الْأَمِينُ ! الْأَمِينُ ! قَدْ رَضِينَا بِحُكْمِ مُحَمَّدٍ الْأَمِينِ .

وَحَكَمَ مُحَمَّدٌ الْأَمِينُ بِأَنْ طَلَبَ مِنَ الْقَوْمِ أَنْ يَأْتُوا بِثَوْبٍ ، فَلَمَّا أَتَوْا بِهِ نَشَرَهُ وَوَضَعَ فِيهِ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ ، ثُمَّ قَالَ : لِيَأْخُذْ كَبِيرُ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِطَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ هَذَا الثَّوْبِ ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعاً . وَرَفَعَ كِبَارُ الْقَوْمِ الثَّوْبَ ، وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ بِدَاخِلِهِ ، فَلَمَّا حَاذَى مَكَانَ وَضْعِهِ مِنْ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ تَنَاوَلَهُ مُحَمَّدٌ مِنَ الثَّوْبِ ، وَوَضَعَهُ فِى مَوْضِعِهِ .

وَفَرِحَ الْقَوْمُ بِزَوَالِ النِّزَاعِ ، وَانْحِسَامِ الشَّرِّ ، وَعَمَّ الإِعْجَابُ بِحُسْنِ تَصَرُّفِ مُحَمَّدٍ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ . وَتَذَكَّرَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ : كَمْ دَخَلَ نَفْسَهَا وَقْتَئِذٍ مِنَ الْإِعْجَابِ بِأَمِينِ قُرَيْشٍ . . . ! !

ثُمَّ تَذَكَّرَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ كَيْفَ وَقَفَ بِالْكَعْبَةِ أَرْبَعَةٌ مِنْ شُيُوخِ مَكَةَ الَّذِينَ عُرِفَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ ، فَهُمْ يُحَرِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْخَمْرَ ، وَلَعِبَ الْمَيْسِرِ ،

وَيَتَجَنَّبُونَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ ، وَيَفْتَدُونَ الْمَوْءُودَةَ مِنْ مَالِهِمْ ، وَهُمْ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ ، وَوَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلَ ، وَعُثْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ ، يُنَادُونَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! يَا أَبْنَاءَ إِبْرَاهِيمَ ! طَهِّرُوا بَيْتَ اللهِ ، وَكَسِّرُوا مَا أَقَمْتُمْ فِيهِ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَحْجَارٍ صَمَّاءَ ، تَطُوفُونَ بِهَا ، وَتَنْحَرُونَ لَهَا .

يَا قَوْمُ ؛ الْتَمِسُوا لَكُمْ دِينًا غَيْرَ الدِّينِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ! يَا قَوْمُ ؛ لَقَدْ أَظَلَّكُمْ زَمَانٌ يَظْهَرُ فِيهِ نَبِيٌّ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ وَالْكُهَّانُ ، فَتُوبُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَارْقُبُوهُ ، تَكُنْ لَكُمُ الدُّنْيَا وَثَوَابُ الْآخِرَةِ ، وَلَكِنَّ قُرَيْشًا أَبَتْ أَنْ تُنْصِتَ لِهَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَعِيبُونَ آلِهَتَهَا ، وَيُحَقِّرُونَ أَصْنَامَهَا ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُمْ غَيْرَ آبِهِينَ بِهِمْ ، وَلَا مُنْصِتِينَ لَهُمْ ، وَزَادَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ فَانْبَرَوا يَسُبُّونَهُمْ ، وَيَطْعَنُونَ فِيهِمْ ، وَيَهْزَءُونَ بِهِمْ .

وَسَكَتَ الشُّيُوخُ عَلَى مَضَضٍ ، وَانْصَرَفُوا إِلَى عِبَادَاتِهِمُ الَّتِي يَتَّبِعُونَهَا وَيَنْتَهِجُونَهَا ، وَيَسِيرُونَ عَلَيْهَا .

ثُمَّ مَرَّ بِخَيَالِ أُمِّ حَبِيبَةَ كَيْفَ جَاءَ إِلَيْهَا أَبُوهَا أَبُو سُفْيَانُ ابْنُ حَرْبٍ ذَاتَ يَوْمٍ يُعَرِّفُهَا أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ قَدْ خَطَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ . كَمَا خَطَبَ أَخُوهُ عَبْدُ اللهِ — وَكَانَ رَجُلًا ضَرِيرًا شَاعِرًا — أُخْتَهَا الْفَرْعَةَ .

ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى زُفَّتْ إِلَى عُبَيْدِ اللهِ ، فَرَأَتْ نَفْسَهَا عَرُوسًا لِرَجُلٍ لَا يَرْتَضِي لِنَفْسِهِ أَنْ يَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آلُهُ وَعَشِيرَتُهُ ، وَأَنْ يُشْرِكَ مَعَ عِبَادَةِ اللهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ .

رَأَتْ نَفْسَهَا زَوْجَةً لِرَجُلٍ يَبْحَثُ وَرَاءَ دِينٍ حَقٍّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْبُدَ بِهِ اللهَ وَحْدَهُ . وَلَمَسَتْ فِي زَوْجِهَا مَا لَمْ تَعْهَدْهُ فِي قَوْمِهَا مِنْ تَكَالُبٍ عَلَى عِبَادَةِ أَصْنَامٍ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَعْقِلُ ، يَصْنَعُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ حِجَارَةٍ صَمَّاءَ ، وَأَحَسَّتْ بِأَنَّ هٰذَا الرَّجُلَ عَلَى حَقٍّ ، وَأَنَّ قَوْمَهَا عَلَى بَاطِلٍ .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ . ثُمَّ بَدَأَتْ تَتَسَرَّبُ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي تَحْكِي أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ وَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَنْتَشِرُ .

الذَّائِعَاتُ الَّتِي تُذِيعُ أَنَّ أَمِينَ قُرَيْشٍ يَدْعُو لِدِينٍ جَدِيدٍ . . !

وَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَقَاوِيلُ ، وَتِلْكَ الْإِذَاعَاتُ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ مَكَّةَ مَثَارًا لِدَهْشَتِهِمْ وَعَجَبِهِمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ .

وَلٰكِنَّهُمْ إِذْ مَا عَرَفُوا أَنَّ هٰذَا الْوَحْيَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ فِيهِ مَا يُخَالِفُ دِينَهُمْ ، وَأَنَّ فِي هٰذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ أَمِينُ قُرَيْشٍ مَا يُبْعِدُهُمْ عَنْ أَصْنَامِهِمْ — غَضِبُوا ، وَثَارُوا ، وَرَمَوْا مُحَمَّدًا بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ ، وَنَعَتُوا الْأَمِينَ بِالصَّبْأَةِ وَالضَّلَالِ ، وَالْخُرُوجِ عَلَى دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ .

وَلٰكِنْ كَانَ فِي قُرَيْشٍ فِئَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ أَزَاحَ اللهُ الْغَشَاوَةَ عَنْ عُيُونِهِمْ ، وَأَنَارَ لَهُمْ بَصَائِرَهُمْ ، فَمَا تَبَيَّنُوا أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ هُوَ دِينُ الْحَقِّ ، وَإِنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ دِينٍ مَا هُوَ إِلَّا دِينٌ بَاطِلٌ — حَتَّى سَارَعُوا إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ، حِينَمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ صَدِيقُ مُحَمَّدٍ الْحَمِيمُ .

وَتَذَكَّرَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ — وَالْفَرَحُ يَطُوفُ بِرُوحِهَا ، وَالطُّمَأْنِينَةُ تَشِيعُ بِنَفْسِهَا — اللَّحْظَةَ السَّعِيدَةَ الَّتِي جَاءَ إِلَيْهَا

فِيهَا زَوْجُهَا — عُبَيْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ — يُبَشِّرُهَا بِدُخُولِهِ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ، دِينِ النَّبِيِّ الَّذِي عُرِفَ مَبْعَثُهُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ ، وَيَدْعُوهَا إِلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ .

وَأَسْلَمَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ ، وَنَعِمَتْ بِالْخُرُوجِ مِنَ الظَّلَامِ إِلَى النُّورِ ، وَتَفَيَّأَتْ بِظِلَالِ الْهُدَى ، وَسَكَنَتْ إِلَى رُكْنِ الْحَقِّ الْقَوِيمِ . هٰذَا هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ حَالُ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ ، الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ بِهَدْيِهِ ، فَسَارَعُوا إِلَى الدُّخُولِ فِي حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ يَلْتَمِسُونَ الْحَقِيقَةَ ، وَيَنْشُدُونَ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ .

وَلَمْ تُبَالِ قُرَيْشٌ بِهٰؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ الصَّابِئِينَ ، الْخَارِجِينَ عَلَى دِينِ أَجْدَادِهِمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، وَلٰكِنَّهَا إِذْ رَأَتْ تَكَاثُرَ عَدَدِهِمْ ، وَثَبَاتَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ ، وَتَعَلُّقَهُمْ بِهِ ، وَتَقْدِيمَ أَمْوَالِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ لِلدِّفَاعِ عَنْهُ — لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَسْكُتَ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا سَكَتَتْ ، وَلَا أَنْ تَصْبِرَ أَكْثَرَ مِمَّا صَبَرَتْ ؛ فَشَمَّرَتْ عَنْ سَاعِدِ جِدِّهَا ، تُحَاوِلُ أَنْ تَفْتِنَهُمْ فِي دِينِهِمُ الْجَدِيدِ ، وَتَرُدَّهُمْ عَنْهُ . فَحَارَبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَبْنَاءِ قُرَيْشٍ الْمُسْلِمِينَ ،

وَاضْطَهَدُوهُمْ ، وَأَصْلَوهُمْ شَتَّى أَنْوَاعِ الْعَذَابِ ؛ وَصَبَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِيذَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ فِي سَبِيلِ دِينِهِمْ ، وَاحْتَمَلُوا بِصَدْرٍ رَحْبٍ كُلَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ عَذَابٍ وَاضْطِهَادٍ . وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا قَدْ آلَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَقْضُوا عَلَى مُحَمَّدٍ ؛ وَأَنْ يَفْتِنُوا كُلَّ مَنِ اتَّبَعُوهُ ، فَآذَوْا مُحَمَّدًا ، وَسَبُّوهُ ، وَشَتَمُوهُ ، وَنَعَتُوهُ بِأَسْوَأِ النُّعُوتِ وَأَقْذَعِهَا ، وَقَالُوا عَنْهُ : إِنَّهُ سَاحِرٌ ، وإِنَّهُ كَاهِنٌ ، وَإِنَّهُ مَجْنُونٌ . ثُمَّ زَادُوا حَتَّى تَآمَرُوا عَلَى التَّرَبُّصِ بِهِ وَقَتْلِهِ . وَزَادُوا فِي إِيذَاءِ أَتْبَاعِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ حَتَّى تَجَاوَزُوا كُلَّ حَدٍّ لِلتَّعَقُّلِ وَالِاتِّزَانِ ؛ فَنَبَذَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ مُسْلِمِيهَا ، وَحَقَّرَتْ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَسَخِرَتْ مِنْهُمْ ؛ وَتَمَادَى الْمُشْرِكُونَ فِي الْقَسْوَةِ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ وَخَدَمِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ مِمَّنِ اتَّبَعُوا دِينَ مُحَمَّدٍ ، فَعَذَّبُوهُمْ بِالْحَبْسِ وَالضَّرْبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ ، وَطَرَحُوهُمْ عَلَى رَمْضَاءِ مَكَّةَ ، فَوْقَ حَصْبَاءِ الصَّحْرَاءِ الْمُلْتَهِبَةِ ، وَتَحْتَ شَمْسِهَا الْمُحْرِقَةِ ، وَكَانَ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ لَهُمْ أَنْ كَوَوْا أَجْسَادَهُمْ بِالنَّارِ ، وَأَغْرَقُوهُمْ فِي الْمَاءِ .

وَإِزَاءَ هٰذَا الْعَذَابِ وَالاِضْطِهَادِ وَالتَّنْكِيلِ الَّذِي كَانَ يُلَاقِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، أَشَارَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْهِجْرَةِ . فَلَمَّا سَأَلُوهُ : وَإِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

نَصَحَ لَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، لِأَنَّ بِهَا مَلِكاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ .

عِنْدَئِذٍ خَرَجَ فَوْجٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُهَاجِرِينَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، مُسْتَخْفِينَ مِنْ أَعْدَائِهِمُ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَ فِيمَنْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَى الْحَبَشَةِ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَأَخُوهُ عُبَيْدُ اللهِ تَصْحَبُهُ زَوْجَتُهُ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ .

وَتَوَقَّفَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بِتَفْكِيرِهَا لَحْظَةً عِنْدَ ذِكْرَى خُرُوجِهَا مِنْ مَكَّةَ مُغَادِرَةً لِوَطَنِهَا الْحَبِيبِ ، الَّذِي بَيْنَ رُبُوعِهِ دَرَجَتْ وَشَبَّتْ ، وَفِيهِ آمَنَتْ وَأَسْلَمَتْ ، وَعَلَى يَدِ مُحَمَّدٍ الْأَمِينِ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ بِالْحَقِّ ، تَبَيَّنَتْ نُورَ الْهُدَى مِنْ بَيْنِ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ حَتَّى أَجْبَرَتْهَا قَسْوَةُ قَوْمِهَا الْمُشْرِكِينَ عَلَى مُغَادَرَةِ مَكَّةَ هِيَ وَزَوْجُهَا ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

آه . . . ! يَا لَهَا مِنْ ذِكْرَيَاتٍ بَعِيدَةٍ مَرَّتْ عَابِرَةً بِمُخَيِّلَةِ أُمِّ حَبِيبَةَ ، فَكَانَ لَهَا أَثَرٌ أَيُّ أَثَرٍ . . ! !

وَعَادَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ تَسْتَعْرِضُ بِخَيَالِهَا مَالَاقَتْ هِيَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي رِحْلَتِهِمْ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْحَبَشَةِ مِنْ صُعُوبَاتٍ وَمَتَاعِبَ ، هَوَّنَهَا عَلَيْهِمْ إِيمَانُهُمْ بِدِينِهِمْ ، وَجِهَادُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ .

وَتَذَكَّرَتْ كَيْفَ كَانَ الْحَمْلُ يُرْهِقُهَا وَقْتَئِذٍ ، وَكَيْفَ كَانَتْ تَضِيقُ بِمَتَاعِبِهِ وَآلَامِهِ ، وَلٰكِنَّهَا تَحَمَّلَتِ الْمَتَاعِبَ ، وَبَدَّدَتْهَا فِي غَمْرَةِ فَرْحَتِهَا وَغِبْطَتِهَا بِأَنَّ مَا تُقَاسِيهِ مَا هُوَ إِلَّا فِي سَبِيلِ حُرِّيَّتِهَا فِي عِبَادَةِ اللهِ ، وَفِي سَبِيلِ فِرَارِهَا بِعَقِيدَتِهَا الْجَدِيدَةِ ، وَبِدِينِهَا الْجَدِيدِ .

وَتَذَكَّرَتْ كَيْفَ اسْتَقْبَلَ نَجَاشِيُّ الْحَبَشَةِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى بِلَادِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالْحَفَاوَةِ وَالتَّرْحِيبِ ، وَأَنْزَلَهُمْ بِجِوَارِهِ فِي خَيْرِ جِوَارٍ ، وَكَانَ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ رَدَّ رُسُلَ قُرَيْشٍ الَّذِينَ أَرْسَلَتْهُمْ إِلَيْهِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا الْمُسْلِمِينَ ، اللَّاجِئِينَ إِلَى جِوَارِهِ . وَوَضَعَتْ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ حَمْلَهَا ،

وَرُزِقَتْ بِابْنَتِهَا حَبِيبَةَ بِنْتِ عُبَيْدِ اللهِ ، وَمِنْ ذٰلِكَ الْوَقْتِ دُعِيَتْ رَمْلَةُ بِاسْمِ « أُمِّ حَبِيبَةَ » .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ . . . وَالْمُسْلِمُونَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْحَبَشَةِ يَعِيشُونَ فِي خَيْرٍ وَسَلَامٍ حَتَّى جَاءَتْهُمُ الْأَخْبَارُ مِنْ مَكَّةَ تُعَرِّفُهُمْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِهَا قَدِ ازْدَادَ عَدَدُهُمْ ، وَبِذٰلِكَ اشْتَدَّ أَزْرُهُمْ ، وَبَاتُوا لَا يَخْشَوْنَ مِنْ قُوَّةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَسَطْوَتِهِمْ .

وَتَاقَتْ نَفْسُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِهِمْ بَعْدَ أَنْ زَالَتِ الْأَسْبَابُ الَّتِي دَعَتْهُمْ إِلَى مُغَادَرَتِهِ ، وَعَلَى ذٰلِكَ غَادَرَ الْحَبَشَةَ عَدَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَائِدِينَ إِلَى مَكَّةَ ، كَانَ فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ .

وَبَقِيَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ إِلَى جِوَارِ زَوْجِهَا عُبَيْدِ اللهِ مَعَ مَنْ بَقِيَ فِي الْحَبَشَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، حَتَّى جَاءَتِ الْأَخْبَارُ مِنْ جَدِيدٍ تَقُصُّ عَلَيْهِمْ أَنَّ إِخْوَانَهُمُ الْمُسْلِمِينَ الْعَائِدِينَ إِلَى وَطَنِهِمْ قَدْ قَابَلَتْهُمُ الْأَنْبَاءُ قَبْلَ دُخُولِهِمْ مَكَّةَ تُعَرِّفُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ ، وَأَنَّ قُرَيْشًا قَدْ خَشِيَتْ

لِذٰلِكَ مِنَ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ ، فَضَاعَفَتْ مِنْ إِيذَائِهَا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعَمِلَتْ عَلَى الْحَدِّ مِنْ نَشْرِ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ بِأَنْ كَتَبَتْ صَحِيفَةً عَلَّقَتْهَا بِجَوْفِ الْكَعْبَةِ آلَتْ فِيهَا عَلَى نَفْسِهَا أَلَّا تَتَعَامَلَ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ الَّذِينَ انْضَمُّوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَأَلَّا يَتَعَامَلُوا مَعَهَا ، وَأَلَّا تَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ ، وَلَا يَتَزَوَّجُوا مِنْهَا ؛ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمْ حِصَارًا اقْتِصَادِيًّا ، وَحَاصَرَتْهُمْ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ ، وَذٰلِكَ حَتَّى تُمِيتَ مُحَمَّدًا وَمَنْ يُنَاصِرُهُ جُوعًا . وَعَلَى ذٰلِكَ تَشَاوَرَ الْعَائِدُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ فِيمَا يَفْعَلُونَ ، فَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ يُلَاقُونَ مَا يُلَاقِي الرَّسُولُ ، وَيُعَانُونَ مَا يُعَانِي الْمُسْلِمُونَ . فَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُرُّوا عَائِدِينَ مِنْ حَيْثُ أَتَوْا ، وَيَرْجِعُوا إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ . وَعَلَى ذٰلِكَ عَادَ إِلَى الْحَبَشَةِ نَفَرٌ مِمَّنْ خَرَجَ مِنْهَا ، يَصْحَبُهُمْ نَفَرٌ آخَرُ لَحِقَ بِهِمْ مُهَاجِرًا مِنْ مَكَّةَ لِيَنْعَمَ مَعَهُمْ بِحُرِّيَّةِ الْعِبَادَةِ فِي بَلَدٍ أَمِينٍ .

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ أُخَرُ . . . ثُمَّ مَرَّتِ السِّنِينُ تَتْرَى . . . كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَتَلَقَّوْنَ أَثْنَاءَهَا كُلَّ مَا يَصِلُ إِلَى الْحَبَشَةِ مِنْ

أَنْبَاءِ مَكَّةَ بِلَهْفَةٍ وَشَوْقٍ . فَحَدَّثَتْهُمُ الْأَنْبَاءُ عَنْ نَقْضِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي كَتَبَهَا الْمُشْرِكُونَ وَعَلَّقُوهَا فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ ، وَعَنْ فَكِّ الْحِصَارِ الَّذِي أَقَامَتْهُ قُرَيْشٌ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَتْبَاعِهِ . ثُمَّ حَدَّثَتْهُمْ عَنْ وَفَاةِ خَدِيجَةَ زَوْجَةِ مُحَمَّدٍ الْوَفِيَّةِ الْمُخْلِصَةِ ، وَوَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ عَمِّ مُحَمَّدٍ الَّذِي كَانَ يُؤَازِرُهُ وَيَحْمِيهِ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ . وَبِفَقْدِهِمَا فَقَدَ مُحَمَّدٌ أَكْبَرَ عَوْنٍ وَخَيْرَ سَنَدٍ . وَكَانَ أَنْ زَادَ اضْطِهَادُ الْمُشْرِكِينَ لِمُحَمَّدٍ وَأَتْبَاعِهِ ، وَكَانَ أَنْ نَالُوهُ وَنَالُوهُمْ بِأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْأَذَى .

ثُمَّ جَاءَتْ أَخْبَارٌ أُخْرَى إِلَى الْمُهَاجِرِينَ بِالْحَبَشَةِ ، اسْتَمَعَتْ إِلَيْهَا أُمُّ حَبِيبَةَ بِكُلِّ انْتِبَاهٍ وَشَوْقٍ وَلَهْفَةٍ : كَانَ مِنْهَا أَنَّ الْأَنْصَارَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَدْ بَايَعُوا مُحَمَّدًا وَنَاصَرُوهُ ؛ ثُمَّ كَانَ مِنْهَا هِجْرَةُ مُحَمَّدٍ وَأَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُخَلِّفِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، كَمَا فَعَلَ مُهَاجِرُو الْحَبَشَةِ مِنْ قَبْلُ . وَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَبْدُ اللهِ وَعُبَيْدُ اللهِ ابْنَا جَحْشٍ وَإِخْوَتُهُمَا مُخَلِّفِينَ دَارَهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ

خَالِيَةً مِنَ السُّكَّانِ وَالْأَهْلِ ، مُوحِشَة ، يُخَيِّمُ عَلَيْهَا سُكُونُ الْقُبُورِ . ثُمَّ تَوَالَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ الْأَنْبَاءُ بِإِعْزَازِ الْإِسْلَامِ ، وَبِانْتِصَارَاتِ مُحَمَّدٍ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَسَكَنَتْ نُفُوسُ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ بِالْحَبَشَةِ ، وَهَدَأَتْ قُلُوبُهُمْ وَتَنَفَّسُوا الصُّعَدَاءَ ارْتِيَاحاً ، وَحَمِدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ اللهَ ، وَسَجَدَتْ لَهُ شُكْرًا عَلَى مَا أَعَزَّ الْإِسْلَامَ ، وَأَوْلَى الْمُسْلِمِينَ .

وَإِذْ بَلَغَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بِذِكْرَيَاتِهَا إِلَى هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ السَّعِيدَةِ تَوَقَّفَتْ لَحْظَةً ، وَقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُهَا بِنُورِ الْفَرَحِ ، وَأُفْعِمَ قَلْبُهَا بِالسَّعَادَةِ وَالْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ .

ثُمَّ اسْتَرْسَلَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ مَعَ أَفْكَارِهَا مِنْ جَدِيدٍ ، فَإِذَا بِوَجْهِهَا يَغِيمُ ، وَيَكْسُوهُ الْوُجُومُ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ مِسْحَةٌ مِنَ الْكَآبَةِ وَالْكَدَرِ وَالْحُزْنِ ، فَقَدْ تَذَكَّرَتْ رُؤْيَا رَأَتْهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ أَحْزَنَتْهَا وَأَزْعَجَتْهَا ، فَقَدْ رَأَتْ زَوْجَهَا عُبَيْدَ اللهِ ابْنَ جَحْشٍ فِي أَسْوَأِ صُورَةٍ ، وَعَلَى أَبْشَعِ خِلْقَةٍ ؛ فَهَبَّتْ مِنْ نَوْمِهَا وَقَدْ أَخَذَهَا الرُّعْبُ وَاسْتَبَدَّ بِهَا الْفَزَعُ ، وَأَخَذَتْ تُفَكِّرُ

فِيمَا رَأَتْهُ مِنْ رُؤْيَا ، وَتَسْتَعْرِضُ مَا لَحَظَتْهُ مِنْ تَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ فِي أَحْوَالِ زَوْجِهَا ، فَلَمْ تَمْلِكْ أَنْ تَمْتَمَتْ تَقُولُ : تَغَيَّرَتْ وَاللهِ حَالُهُ . . ! ! فَلَمَّا أَصْبَحَتْ إِذْ بِزَوْجِهَا يُعْلِنُ حَالَهُ فَيَقُولُ .

يَا أُمَّ حَبِيبَةَ . . . إِنِّي نَظَرْتُ فِي الدِّينِ ، فَلَمْ أَرَ دِيناً خَيْرًا مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ . . وَكُنْتُ قَدْ دِنْتُ بِهَا ، ثُمَّ دَخَلْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ . ثُمَّ هَأَنَذَا أَعُودُ فَأَرْجِعُ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ . . .

وَبُهِتَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ لِمَا سَمِعَتْ مِنْ زَوْجِهَا بِرَغْمِ مَا تَبَيَّنَتْهُ مِنْ تَغَيُّرِ حَالِهِ ، فَمَا كَانَتْ تَظُنُّ قَطُّ أَنَّ زَوْجَهَا الَّذِي جَاهَدَ طَوِيلًا فِي سَبِيلِ الْبَحْثِ عَنْ دِينِ حَقٍّ يَعْبُدُ بِهِ اللهَ ، يَخْرُجُ عَلَى هَذَا الدِّينِ بَعْدَ أَنْ وَجَدَهُ . . ! وَمَا كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِهَا أَنَّ زَوْجَهَا بَعْدَ أَنْ تَرَكَ دِيَارَهُ ، وَخَلَّفَ بِلَادَهُ ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَفَرَّغَ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ — سَوْفَ يَنْبُذُ هَذَا الدِّينَ وَيَدْخُلُ فِي دِينٍ غَيْرِهِ . . ! وَلَمْ تُجْدِ مَعَ عُبَيْدِ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ نَصَائِحُ زَوْجَتِهِ فِي هِدَايَتِهِ ، وَبَقَائِهِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ دِينٍ ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْمُسْلِمُونَ الْمُهَاجِرُونَ بِالْحَبَشَةِ أَنْ يَعُودُوا بِهِ إِلَى

حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ كَانَ إِذَا مَرَّ عَلَى جَمَاعَاتِهِمْ يَقُولُ :

فَتَّحْنَا وَصَأْصَأْتُمْ . . ! (أَيْ أَنَّا قَدْ فَتَحْنَا أَعْيُنَنَا فَأَبْصَرْنَا ، وَأَنْتُمْ مَازِلْتُمْ تُحَاوِلُونَ فَتْحَ عُيُونِكُمْ تَلْتَمِسُونَ الْبَصَرَ). وَكَانَ حَتْماً عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ الَّتِي تَابَعَتْ دِينَ مُحَمَّدٍ، وَدَانَتْ بِالْإِسْلَامِ ، وَرَفَضَتْ مُحَاوَلَةَ زَوْجِهَا أَنْ يَرُدَّهَا عَنْ دِينِهَا — أَنْ تُفَارِقَ زَوْجَهَا الَّذِي تَنَصَّرَ ، فَفَارَقَتْهُ وَعَاشَتْ وَحِيدَةً مَعَ ابْنَتِهَا حَبِيبَةَ ، وَلَا سَلْوَى لَهَا فِي مِحْنَتِهَا فِي زَوْجِهَا إِلَّا أَنَّهَا عَلَى دِينِ الْحَقِّ ، وَلَا عَزَاءَ لَهَا فِي غُرْبَتِهَا إِلَّا مَا يُضِيءُ قَلْبَهَا مِنْ نُورِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هَدَاهُ اللهُ إِلَيْهِ . حَتَّى مَاتَ زَوْجُهَا عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ الَّذِي دَانَ بِهِ .

وَخَرَجَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ مِنْ ذِكْرَيَاتِهَا إِلَى مَا هِيَ فِيهِ مِنْ وَاقِعٍ ، وَعَادَتْ بِتَفْكِيرِهَا إِلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَالٍ . لَقَدْ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّجَاشِي لِيُزَوِّجَهُ مِنْهَا ، إِذَنْ فَالرَّسُولُ قَدْ عَلِمَ مَا كَانَ مِنْ تَنَصُّرِ زَوْجِهَا عُبَيْدِ اللهِ . . . ثُمَّ بِمَا كَانَ مِنْ مَوْتِهِ ؛ فَأَرَادَ أَنْ يُكَرِّمَ فِيهَا النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُجَاهِدَاتِ الصَّابِرَاتِ ، كَمَا أَكْرَمَ نِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ مُجَاهِدَاتٍ صَابِرَاتٍ غَيْرَهَا مِنْ قَبْلُ .

٣

وَفِي قَصْرِ النَّجَاشِي بِالْحَبَشَةِ اجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَيْهَا ، وَمُحَيَّاهُمْ يَفِيضُ بِالْبِشْرِ ، وَوُجُوهُهُمْ يَغْمُرُهَا السُّرُورُ .

وَكَانَ اجْتِمَاعُهُمْ ، وَسُرُورُهُمْ لِأَنَّ النَّجَاشِي دَعَاهُمْ لِحُضُورِ الْحَفْلِ الَّذِي سَيَتَوَلَّى فِيهِ تَزْوِيجَ رَسُولِهِمْ مِنَ الْمُهَاجِرَةِ الْكَرِيمَةِ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ . وَكَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ الْمُهَاجِرِينَ جَعْفَرُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ . وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الْحَاضِرِينَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ الَّذِي أَرْسَلَهُ مُحَمَّدٌ إِلَى نَجَاشِي الْحَبَشَةِ لِيَخْطُبَ عَلَيْهِ أُمَّ حَبِيبَةَ ، كَمَا أَرْسَلَهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ بِالْحَبَشَةِ يَطْلُبُ مِنْهُمُ الْعَوْدَةَ إِلَى بِلَادِ الْعَرَبِ بَعْدَ أَنِ اشْتَدَّ أَزْرُ الْمُسْلِمِينَ بِهَا ، وَزَالَتِ الْأَسْبَابُ الَّتِي هَاجَرُوا مِنْ أَجْلِهَا . وَحِينَ انْعَقَدَ الْجَمْعُ ، وَقَفَ النَّجَاشِي يُعْلِنُ بَيْنَ الْحَاضِرِينَ مَا أَنَابَهُ مُحَمَّدٌ فِيهِ ، فَقَالَ : لَقَدْ كَتَبَ إِلَيَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ فِي أَنْ أُزَوِّجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَأَجَبْتُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ ، وَأَصْدَقْتُهَا

أَرْبَعمائَةِ دِينَارٍ ؛ ثُمَّ سَكَبَ الدَّنَانِيرَ وَسَأَلَ: فَمَنْ أَوْلَاكُمْ بِهَا ؟

قَالَ الْحَاضِرُونَ : خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ

فَقَالَ النَّجَاشِي لِخَالِدٍ : فَزَوِّجْهَا مِنْ نَبِيِّكُمْ !

فَتَقَدَّمَ خَالِدٌ وَكِيلُ أُمِّ حَبِيبَةَ فِي زَوَاجِهَا مِنَ الرَّسُولِ فَقَالَ:

قَدْ أَجَبْتُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ، وَزَوَّجْتُهُ أُمَّ حَبِيبَةَ .

وَقَدَّمَ النَّجَاشِي مَا أَصْدَقَهُ لِأُمِّ حَبِيبَةَ مِنْ دَنَانِير . فَقَبَضَ خَالِدٌ الصَّدَاقَ ، وَبِذَلِكَ صَارَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَتَحَقَّقَ قَوْلُ الْهَاتِفِ الَّذِي هَتَفَ بِهَا فِي نَوْمِهَا يُنَادِيهَا . بِهَذَا اللَّقَبِ الْكَرِيمِ .وَنَهَضَ الْقَوْمُ إِلَى وَلِيمَةِ النَّجَاشِي الَّتِي أَوْلَمَهَا لِمَدْعُوِّيهِ ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا رَاضِينَ

وَحُمِلَ إِلَى أُمِّ حَبِيبَةَ صَدَاقُهَا ، وَأَرْسَلَتْ نِسَاءُ النَّجَاشِي إِلَيْهَا هَدَايَا مِنْ طِيبٍ وَعُودٍ وَعَنْبَرٍ ، حَمَلَتْهَا إِلَيْهَا جَارِيَةُ النَّجَاشِي أَبْرَهَةُ . وَتَقَبَّلَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ هَدَايَا نِسَاءِ الْمَلِكِ ، وَأَخْرَجَتْ مِنْ صَدَاقِهَا خَمْسِينَ دِينَارًا قَدَّمَتْهَا لِأَبْرَهَةَ وَهِيَ تَقُولُ لَهَا :

إِنِّي كُنْتُ قَدْ أَعْطَيْتُكِ السِّوَارَيْنِ وَلَا مَالَ بِيَدِي، وَالْآنَ

وَقَدْ جَاءَنِى الْمَالُ فَخُذِى الْخَمْسِينَ دِينَارًا فَاسْتَعِينِي بِهَا .

وَلَكِنَّ أَبْرَهَةَ رَفَضَتْ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ أُمِّ حَبِيبَةَ شَيْئًا ، وَرَدَّتِ السِّوَارَيْنِ إِلَيْهَا وَهِيَ تَعْتَذِرُ بِقَوْلِهَا :

لَقَدْ أَمَرَنِى الْمَلِكُ أَلَّا أُثْقِلَ عَلَيْكِ ، وَأَلَّا أُكَلِّفَكِ شَيْئًا .

وَسَاعَدَتْ أَبْرَهَةُ أُمَّ حَبِيبَةَ فِى إِعْدَادِ حَاجَاتِهَا ، وَعَاوَنَتْهَا فِى تَجْهِيزِهَا وَتَجْهِيزِ ابْنَتِهَا حَبِيبَةَ بِمَا يَلْزَمُ لِلرَّحِيلِ .

وَإِذْ تَجَهَّزَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ ، وَتَجَهَّزَ الْمُسْلِمُونَ لِمُغَادَرَةِ الْحَبَشَةِ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ، وَدَّعَهُمُ النَّجَاشِي ، وَبَعَثَ بِرُسُلٍ مِنْ لَدُنْهُ سَارُوا مَعَهُمْ حَتَّى رَكِبُوا الْبَحْرَ عَلَى ظَهْرِ سَفِينَتَيْنِ أَمَرَ الْمَلِكُ بِإِعْدَادِهِمَا لَهُمْ .

وَهَكَذَا غَادَرَ الْمُهَاجِرُونَ أَرْضَ الْحَبَشَةِ الَّتِى اسْتَقْبَلَتْهُمْ وَأَضَافَتْهُمْ ، وَأَقَامُوا فِيهَا خَيْرَ مُقَامٍ .

وَعَلَى شَاطِئِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ نَزَلَ الْقَوْمُ ، وَسَارُوا مُيَمِّمِينَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ ، وَقَدِ اسْتَخَفَّهُمُ الْفَرَحُ لِعَوْدَتِهِمْ إِلَى بِلَادِهِمْ ، وَاسْتَبَدَّ بِهِمُ الشَّوْقُ إِلَى لِقَاءِ الرَّسُولِ ، وَرُؤْيَةِ الصَّحَابِ وَالْأَحْبَابِ .

وَإِذْ شَارَفَ الْقَوْمُ الْمَدِينَةَ ، اسْتَقْبَلَتْهُمُ الْأَخْبَارُ تَقُصُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ خُرُوجِ الرَّسُولِ وَمَعَهُ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ لِغَزْوِ يَهُودِ خَيْبَرَ ، وَتَحْكِي لَهُمْ خَبَرَ النَّصْرِ الَّذِي نَصَرَهُ اللهُ لِنَبِيِّهِ عَلَى الْيَهُودِ ، وَتُعَرِّفُهُمْ قُرْبَ عَوْدَةِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَى رَأْسِهِ الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَدَخَلَ الْعَائِدُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ أَهْلُهَا بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَالتِّرْحَابِ .

ثُمَّ لَمْ تَمْضِ عَلَى ذٰلِكَ بِضْعَةُ أَيَّامٍ ، حَتَّى قَدِمَ الرَّسُولُ الْمَدِينَةَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الظَّافِرِينَ الْمُنْتَصِرِينَ ، فَكَانَتْ فَرْحَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَرْحَتَيْنِ ، وَكَانَ سُرُورُهُمْ بِقَدَمِ الرَّسُولِ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ الظَّافِرِ ، وَبِعَوْدَةِ مُهَاجِرِي الْحَبَشَةِ إِلَى أَهْلِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ — لَا يُعَادِلُهُ سُرُورٌ .

وَكَانَ فَرَحُ النَّبِيِّ بِلِقَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ، يُعَبِّرُ عَنْهُ ، وَيُبَيِّنُ مِقْدَارَهُ — سُرُورُهُ بِلِقَاءِ ابْنِ عَمِّهِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، الَّذِي

صَوَّرَهُ الرَّسُولُ حِينَ لِقَائِهِ بِقَوْلِهِ وَهُوَ يُعَانِقُهُ :

مَا أَدْرِى ! بِأَيِّهِمَا أُسَرُّ ؛ بِفَتْحِ خَيْبَرَ ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ ؟!

وَحَظِيَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بِحَفَاوَةِ الرَّسُولِ وَإِكْرَامِهِ ، وَحَظِىَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِوَلِيمَةٍ حَافِلَةٍ أَوْلَمَهَا لَهُمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ زَوْجُ بِنْتِ النَّبِىِّ تَكْرِيمًا لِبِنْتِ عَمِّهِ أُمِّ حَبِيبَةَ الَّتِى شَرَّفَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ فَرَفَعَاهَا إِلَى مَصَافِّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَدَخَلَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بَيْتَ الرَّسُولِ ، فِى الْوَقْتِ الَّذِى دَخَلَتْ إِلَيْهِ عَرُوسٌ أُخْرَى هِىَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَىِّ بْنِ أَخْطَبَ ، الَّتِى اصْطَفَاهَا الرَّسُولُ مِنْ سَبَايَا خَيْبَرَ لِرَزَانَتِهَا وَعَقْلِهَا ، وَأَعْتَقَهَا ، وَتَزَوَّجَهَا ، فَأَكْرَمَ فِيهَا بِذٰلِكَ الْيَهُودَ .

وَكَانَ فِى التَّبَايُنِ الَّذِى اسْتَقْبَلَ بِهِ زَوْجَاتُ الرَّسُولِ الْعَرُوسَيْنِ الْجَدِيدَتَيْنِ ، مَا يَدُلُّ عَلَى مَا لِأُمِّ حَبِيبَةَ فِى نُفُوسِهِنَّ مِنْ مَكَانَةٍ وَمَنْزِلَةٍ ؛ فَقَدْ قَابَلْنَ دُخُولَهَا إِلَى بَيْتِ النَّبِىِّ بِسُكُونٍ وَهُدُوءٍ وَاحْتِرَامٍ ، فِى حِينَ كَانَ تَأَفُّفُهُنَّ وَتَذَمُّرُهُنَّ بِدُخُولِ صَفِيَّةَ إِلَى بَيْتِ الرَّسُولِ ظَاهِرًا وَاضِحًا .

وَعَاشَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ فِي بَيْتِ الرَّسُولِ مُعْتَزَّةً بِمَكَانَتِهَا الَّتِي رَفَعَهَا الرَّسُولُ إِلَيْهَا ، فَلَمْ يُعْرَفْ عَنْهَا أَنَّهَا أَثَارَتْ بَيْنَ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ خِلَافًا ، أَوْ أَحْدَثَتْ مُشْكِلاً .

أَمَّا أَبُوهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ رَئِيسُ قُرَيْشٍ ، وَكَبِيرُ الْمُشْرِكِينَ بِالْمَدِينَةِ — فَلَمْ يَسَعْهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ ، وَقَدْ بَلَغَهُ زَوَاجُ مُحَمَّدٍ مِنَ ابْنَتِهِ الَّتِي لَمْ يَرَهَا مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ :

هٰذَا الْفَحْلُ لَا يُقْذَعُ أَنْفُهُ ! أَيْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَجُلٌ شَرِيفٌ لَا يُرَدُّ عَنْ مُصَاهَرَةٍ وَلَا مُوَاصَلَةٍ ، وَيَسُرُّ كُلَّ إِنْسَانٍ أَنْ يُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ . وَمَعَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ قَائِمَةً بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَمَعَ النُّفُورِ وَالْمُقَاطَعَةِ الَّتِي كَانَ لَا يُرْجَى مَعَهَا أَنْ يَتَقَابَلَ أَبٌ مُشْرِكٌ مَعَ ابْنٍ لَهُ مُسْلِمٍ أَوِ ابْنَةٍ مُسْلِمَةٍ .

فَقَدْ أَجْبَرَتِ الظُّرُوفُ ، وَقَضَتِ الْأَوْضَاعُ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ أَنْ يَسِيرَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا كَانَ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ عَدَاوَةٍ ، وَأَنْ يَلْتَقِيَ مَعَ ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ النُّفُورِ وَالْمُقَاطَعَةِ الَّتِي لَا يُرْجَى بِسَبَبِهَا أَنْ يَتَقَابَلَ يَوْمًا مَعَ ابْنَتِهِ ... ؟

وَكَانَتْ هٰذِهِ الظُّرُوفُ الَّتِي أَجْبَرَتْ أَبَا سُفْيَانَ أَنْ يَسِيرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَدَعَتْهُ إِلَى أَنْ يَسْعَى لِمُقَابَلَةِ ابْنَتِهِ — هِيَ مَا حَدَثَ مِنْ نَقْضِ قُرَيْشٍ لِعَهْدِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِي عَقَدَتْهُ مَعَ مُحَمَّدٍ، وَكَانَ مِنْ نُصُوصِهِ نَصٌّ يُوجِبُ الْهُدْنَةَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْمُسْلِمِينَ لِمُدَّةٍ مَدَاهَا سَنَتَانِ، لَا يَتَعَرَّضُ فِيهَا أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ لِلْفَرِيقِ الْآخَرِ بِحَرْبٍ أَوْ قِتَالٍ. وَكَانَ فِي هٰذَا النَّصِّ أَنَّ مَنْ أَرَادَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الدُّخُولَ فِي هٰذَا الْعَهْدِ فَلَهُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ. فَدَخَلَتْ إِلَى جَانِبِ مُحَمَّدٍ قَبَائِلُ خُزَاعَةَ، وَدَخَلَتْ إِلَى جَانِبِ قُرَيْشٍ قَبَائِلُ بَنِي بَكْرٍ.

وَمَرَّتْ فَتْرَةٌ مِنَ الْوَقْتِ لَا يَتَعَرَّضُ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ لِقُرَيْشٍ، وَلَا لِحُلَفَائِهِمْ، وَلَا تَتَعَرَّضُ قُرَيْشٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا لِمَنْ فِي عَهْدِهِمْ، حَتَّى ابْتَدَأَ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْمَلُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ وَاجِبِ احْتِرَامِهِمْ لِلْمُعَاهَدَةِ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَتَّى نَقَضَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي بَكْرٍ حِلْفَهُمْ بِأَنْ هَجَمُوا عَلَى قَبِيلَةِ خُزَاعَةَ حَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ بِالسِّلَاحِ سِرًّا جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ.

وَشَعَرَتْ قُرَيْشٌ بِسَبَبِ ذٰلِكَ أَنَّهَا أَذْنَبَتْ ، وَأَنَّهَا قَدْ نَقَضَتِ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَصْبَحَ بِنَقْضِهَا لِعَهْدِهَا فِي حِلٍّ مِنْ أَنْ يُهَاجِمَهُمْ وَأَنْ يُقَاتِلَهُمْ .

وَاسْتَنْجَدَتْ قُرَيْشٌ بِكَبِيرِهَا أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى مُحَمَّدٍ لِيَعْمَلَ عَلَى مَدِّ أَجَلِ الْهُدْنَةِ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ . وَلِيَسْعَى فِي زِيَادَةِ تَأْكِيدِهَا وَتَثْبِيتِهَا قَبْلَ أَنْ تَصِلَ الْأَخْبَارُ إِلَى مُحَمَّدٍ بِمَا أَحْدَثَتْ قُرَيْشٌ . وَعَلَى ذٰلِكَ قَصَدَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِيمَا أَوْفَدَهُ فِيهِ قَوْمُهُ . وَفِي الطَّرِيقِ عَلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ سَارَتْ إِلَيْهِ الْأَخْبَارُ بِمَا حَدَثَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَنَّ ذَهَابَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ لِمُقَابَلَةِ مُحَمَّدٍ قَدْ أَصْبَحَ جِدَّ عَسِيرٍ .

وَعَلَى ذٰلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى مُحَمَّدٍ مُبَاشَرَةً فِيمَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَرَأَى أَنْ يَقْصِدَ إِلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ الرَّسُولِ ؛ لِتَكُونَ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ .

وَقَصَدَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى بَيْتِ أُمِّ حَبِيبَةَ ، وَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ الَّتِي لَمْ يَرَهَا وَلَمْ تَرَهُ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ .

وَفُوجِئَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ لِرُؤْيَةِ أَبِيهَا بِدَارِهَا ، فَوَقَفَتْ حَيْرَانَةً لَا تَدْرِى ! مَاذَا تَعْمَلُ ؟ ! ! وَلَا مَاذَا تَقُولُ ؟ ! !

وَتَقَدَّمَ أَبُو سُفْيَانَ لِيَجْلِسَ عَلَى الْفِرَاشِ الَّذِى مُدَّ بِجَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْحُجْرَةِ ، فَإِذَا بِابْنَتِهِ تُسْرِعُ فَتَطْوِيهِ عَنْهُ ، حَائِلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُلُوسِ عَلَيْهِ .

وَدَهِشَ أَبُو سُفْيَانَ لِمَا فَعَلَتِ ابْنَتُهُ ، فَسَأَلَهَا : يَا بُنَيَّةَ ، مَا أَدْرِى !! أَرَغِبْتِ بِى عَنِ الْفِرَاشِ، أَمْ رَغِبْتِ بِالْفِرَاشِ عَنِّى؟!

فَأَجَابَتْ : بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ، وَأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ ، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَيْهِ .

فَغَضِبَ أَبُو سُفْيَانَ مِنَ ابْنَتِهِ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَقَالَ لَهَا : وَاللهِ يَا بُنَيَّةُ لَقَدْ أَصَابَكِ شَرٌّ بَعْدِى !

وَغَادَرَ أَبُو سُفْيَانَ ابْنَتَهُ مُتَأَثِّرًا غَاضِبًا ، وَبَقِيَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ وَاجِمَةً آسِفَةً سَاكِنَةً ، وَقَدْ بَلَغَ بِهَا التَّأَثُّرُ مَبْلَغًا عَظِيمًا . . !

فَهَا هُوَ ذَا أَبُوهَا الَّذِى لَمْ تَرَهُ مُنْذُ سِنِينَ كَثِيرَةً، مُنْذُ أَنْ هَاجَرَتْ إِلَى الْحَبَشَةِ بَعْدَ أَنْ فَرَّقَ الْإِسْلَامُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ . . . هَا هُوَ

تَرَاهُ بَعْدَ هٰذَا الْأَمَدِ الطَّوِيلِ فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَلْقَاهُ كَمَا تَلْقَى الِابْنَةُ أَبَاهَا بَعْدَ طُولِ الْغِيَابِ وَطُولِ الِاغْتِرَابِ . . ! وَيَدْخُلُ دَارَهَا فَلَا تَقْدِرُ أَنْ تُرَحِّبَ بِهِ وَتُكَرِّمَهُ بِمَا يَجِبُ أَنْ تُقَدِّمَ الْبِنْتُ لِأَبِيهَا مِنْ تَرْحِيبٍ وَإِكْرَامٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ شِرْكَهُ بِاللهِ قَدْ حَالَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ، وَلِأَنَّ كُفْرَهُ قَدْ وَقَفَ عَقَبَةً لَا يُمْكِنُ مَعَهَا أَنْ تَجْتَازَهَا إِلَيْهِ ، وَلَمْ تَمْلِكْ أُمُّ حَبِيبَةَ لِأَبِيهَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّجِهَ بِقَلْبِهَا وَرُوحِهَا إِلَى اللهِ تَطْلُبُ مِنْهُ ، وَتَبْتَهِلُ إِلَيْهِ ، أَنْ يَهْدِيَ أَبَاهَا بِهُدَى الْإِيمَانِ ، وَيُنْعِمَ عَلَيْهِ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ .

وَلَمْ يَطُلِ انْتِظَارُ أُمِّ حَبِيبَةَ لِمَا تَمَنَّتْ ؛ فَقَدْ فَشَلَ مَسْعَى أَبِي سُفْيَانَ لِمَدِّ الْهُدْنَةِ الَّتِي بَيْنَ قُرَيْشٍ وَمُحَمَّدٍ . وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ بَعْدَ أَنْ جَهَّزَ جَيْشَهُ لِمُحَارَبَةِ قُرَيْشٍ وَفَتْحِ مَكَّةَ .

ثُمَّ لَمْ تَلْبَثِ الْأَخْبَارُ أَنْ جَاءَتْ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ تَقُصُّ عَلَيْهِمْ أَخْبَارَ الرَّسُولِ ، وَتَحْكِي لَهُمْ أَنْبَاءَ قُرَيْشٍ . فَكَانَ مِنْ أَبْهَجِ هٰذِهِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ خَبَرُ فَتْحِ الرَّسُولِ لِمَكَّةَ دُونَ حَرْبٍ ، وَدُونَ مُقَاوَمَةٍ ، وَكَانَ مِنْ أَحْلَى الْأَنْبَاءِ

عِنْدَ أُمِّ حَبِيبَةَ نَبَأُ إِسْلَامِ أَبِيها أَبِي سُفْيانَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ . وَحَمِدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ رَبَّهَا ، وَسَجَدَتْ لِلهِ شُكْرًا ، وَقَدِ اطْمَأَنَّ قَلْبُها ، وَهَدَأَتْ نَفْسُها ، وَعَاشَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِبَيْتِ الرَّسُولِ عِيشَةً رَضِيَّةً هَانِئَةً مُسْتَقِرَّةً مُعْتَزَّةً بِمَرْكَزِهَا كَزَوْجَةٍ لِرَسُولِ اللهِ ، وَابْنَةٍ لِزَعِيمٍ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ .

ثُمَّ عَاشَتْ مِنْ بَعْدِهِ حَرِيصَةً عَلَى مَرْكَزِهَا هَذَا بَيْنَ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ ، حَتَّى إِذَا مَا حَضَرَتْهَا الْوَفَاةُ حَرَصَتْ عَلَى أَنْ تَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رِضَاءِ ضُرَّتَيْهَا : عَائِشَةَ ، وَأُمِّ سَلَمَةَ ، اللَّتَيْنِ كَانَتَا تُنَصَّبَانِ مِنْ أَنْفُسِهِمَا قَائِدَتَيْنِ لِحِزْبَيْ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ ، فَاسْتَدْعَتْ عَائِشَةَ ، وَقَالَتْ لَهَا : قَدْ كَانَ مَا بَيْنَنَا مَا يَكُونُ بَيْنَ الضَّرَائِرِ ، أَفَتُحَلِّلِينَنِي . فَحَلَّلَتْهَا عَائِشَةُ ، وَاسْتَغْفَرَتْ لَهَا ، فَسُرَّتْ أُمُّ حَبِيبَةَ ، وَبَشَّ وَجْهُهَا ، وَقَالَتْ لِعَائِشَةَ : سَرَرْتِنِي ، سَرَّكِ اللهُ !

ثُمَّ أَرْسَلَتْ إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَقَالَتْ لَهَا مَا قَالَتْ لِعَائِشَةَ . وَمَاتَتْ رَاضِيَةً عَنْ نَفْسِهَا ، مَرْضِيًّا عَنْهَا مِمَّنْ عَرَفَنْهَا وَعَاشَرَنْهَا . وَكَانَتْ وَفَاتُهَا سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ ، وَكَانَ مَثْوَاهَا أَرْضَ الْبَقِيعِ .

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٢٠٢١٤
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6393-1

٢٠٠٢/٨٦ ٧/٢٠٠٢ طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)